مظاهر الإبداع في النحو العربي

د. لخضر روبحي . جامعة المسيلة

ملخص

يهدف هذا البحث إلى معرفة مظاهر الإبداع في النحو العربي، ممثلة في نضج كل من: القياس، العامل، التعليل، والمصطلح النحوي. فمن خلالها تتحدد معالم الدراسة النحوية، ونتعرف على عبقرية نحاة العربية ... .

Résume:

Cette recherche a pour objectif la connaissance des manifestations de la création grammaticale telle qu'on la trouve dans la mesure, le facteur, l'argumentation et le terme grammatical.
C'est selon ces derniers que l'étude grammaticale prend forme, et c'est ce qui nous révèle le génie des grammairiens arabes.

مجلة منتدى الأستاذ: المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية .سطيف المنصورة.25000. قسنطينة. الجزائر
الهاتف /الفاكس: 00 213 (0) 31 62 29 98
e-mail :bouhrourh@yahoo.fr / bouhrourh@gmail.com

حظي تاريخ النحو العربي بعناية ملموسة من قبل الدّارسين المحدثين . فدرسه بعضهم من خلال نشأته، ودرسه بعضهم من خلال مدارسه، ودرسه آخرون من خلال قواعده ... الخ

وقد بدا لي في هذا الموضوع أن أركز على مظاهر الإبداع فيه إذ أنّ كلّ ما في النحو من قضايا كلّية، و معالم منهجية حكمت مساره قرونا ولا تزال، ثم ما تفرّع عن ذلك من أحكام جزئية، يرتد في حقيقة أمره إليها . وهذه المظاهر هي:

أولا – نضج القياس :

يعدّ موضوع القياس من أهم مظاهر الإبداع في النحو العربي فبه تظهر عبقرية نحاة العربية في طرائقهم في النظر وما امتازوا به من فطنة واقتدار على النفاذ إلى المعاني المتستّرة وراء أوضاع الكلم. فإذا أخذنا القياس في أبسط معانيه، تبيّن لنا أنّه : " عملية فكرية يقوم بها الإنسان الذي ينتمي إلى جماعة لغوية، و يجري بمقتضاها على الاستعمال المطرد في هذه الجماعة " (1) .

ولا شك أنّ هذا الاعتبار هو الذي أوحى باتخاذ القياس معيارا لم يلبث أن سيطر على النحاة الأوائل، فأدخلوه في تعريفهم للنحو، وأفضى بهم إلى الطريق الذي سلكوه بعد ذلك . وقد نسب (2) إلى الكسائي قوله :

إنّما النحو قياس يتّبع وبه في كل أمر ينتفع

ويكاد ظهور القياس في النحو يقترن باسم عبد الله بن إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ) وذلك في الكلمة المشهورة التي قالها فيه ابن سلام وردّدها من بعده آخرون بأنّه " أوّل من بعج النّحو ومدّ القياس والعلل " (3) .

وقد ذكر ابن سلام أيضا، في معرض الموازنة بين ابن أبي إسحاق هذا أبي عمرو بن العلاء : " إن ابن أبي إسحاق كان أشد تجريدا للقياس، وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغتها وغريبها " (4) .

ومن الصعب أن تنسب أولية علم من المعلوم إلى إنسان بعينيه، فمثل هذه القضايا إنما تمرّ بمراحل عدة، ويتعاقب عليها المتكلمون من جهة، ومن يحاولون

تقنين العلوم من جهة أخرى . لكن من الواضح أنّ القياس النحوي نضج وتطور في عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 157 هـ) متأثرا بالدراسات الفقهية التي كانت تعاصر نشأة النحو في هذه المرحلة، ومما يصور ذلك حواره مع تلميذه سيبويه، في رفع المنادى إذا كان مفردا ونصبه وهو يجري على هذا النمط :

" زعم الخليل أنهم نصبوا المضاف نحويا عبدَ الله و يا أخانا والنكرة حين قالوا يا رجلا صالحاً حين طال الكلام كما نصبوا هو قبلك وهو بعدك . ورفعوا المفرد كما رفعوا قبل وبعد وموضعهما واحد، وذلك قولك : يا زيد و يا عمرو . وتركوا التنوين في المفرد كما تركوه في قبل . قلتُ . أرأيت قولهم : يا زيدُ الطويلَ علام نصبوا الطويل ؟ قال : نصب لأنه صفة لمنصوب، وقال : و إن شئت كان نصبا على أعني . فقلت : أرأيت الرفع على أي شيء هو إذا قال : يا زيد الطويل ؟ قال : هو صفة لمرفوع . قلت : ألست قد زعمت أن هذا المرفوع في موضع نصب ؟ فلم لا يكون كقوله : لقيته أمسِ الأحدثَ ؟ قال : من قبل أن كان اسم مفرد في النداء مرفوع أبدا وليس كل اسم في موضع أمس يكون مجرورا، فلما اطرد الرفع في كل مفرد في النداء صار عندهم بمنزلته ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل، فجعلوا وصفه إذا كان مفردا بمنزلته : قلت : أفرأيت قول العرب كلهم :

أزيدُ أخا ورقاءَ أن كنت ثائرا فقد عرضتْ أحناءُ حقٍّ فخاصِمِ

لأي شيء لم يجز فيه الرفع كما جاز في الطويل (يريد عبارة يا زيد الطويل السابقة) قال : لأن المنادى إذا وصف بالمضاف فهو بمنزلته إذا كان في موضعه، ولو جاز هذا لقلت : يا أخونا، تريد أن تجعله في موضع المفرد، وهذا لحن، فالمضاف إذا وصف به المنادى فهو بمنزلته إذا ناديته، لأنه وصف لمنادى في موضع نصب، كما انتصب حيث كان منادى لأنه في موضع نصبه و لم يكن فيه ما كان في (كلمة) الطويل لطوله . وقال الخليل : كأنهم لما أضافوا ردوه إلى الأصل كقولك : إن أمسكَ قد مضى " (5) . وهذه القطعة زاخرة بالأقيسة القائمة على علة المشابهة .

ونضج هذا القياس أكثر على يد أبي الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ) بإنشاء (علم أصول النحو) على غرار (أصول الكلام والفقه) .

ثانيا – نضج فكرة العامل :

من المعروف أنّ الدراسات النحوية العربية قامت على ما يسمى بنظرية العوامل، " التي لها في التراث اللغوي العربي، والنحوي على الخصوص، مساحات عريضة و آراء متعددة " (6).

و نسوق في هذا السياق حكاية تتردد في كتب اللغة والنحوكدليل على مدى اهتمام النحاة وإلحاحهم على قضية العامل، وأهميته في النحو العربي :

" سأل الفراء (ت 207 هـ) الجرمي (255 هـ) أخبرني عن قولهم " زيد منطلق " لم رفعوا زيد ؟ قال الجرمي : بالابتداء، قال الفراء : وما معنى الابتداء ؟ قال الجرمي : تعريته من العوامل اللفظية، قال الفراء : فأظهره، فقال : هذا معنى لا يظهر، فقال الفراء : فمثله، قال الجرمي : لا يمثل، قال الفراء ما رأيت – كاليوم – – عاملا لا يظهر ولا يمثل، فقال الجرمي : أخبرني عن قولهم : " زيد ضربته " لم رفعتم زيدا ؟ قال الفراء : بالهاء العائدة على زيد، فقال الجرمي : الهاء اسم، كيف يرفع الاسم ؟ فقال الفراء : نحن لا نبالي من هذا، فإننا نجعل كل واحد من المبتدأ والخبر عاملا في صاحبه في نحو : " زيد منطلق : فقال الجرمي : " يجوز أن يكون كذلك في " زيد منطلق "، لأن واحد من الاثنين مرفوع في نفسه فجاز أن يرفع الآخر، وأما الهاء في " ضربته " فهي محل نصب فكيف ترفع الاسم ؟ فقال الفراء : لم نرفعه بها، إنما رفعناه بالعائد فقال الجرمي : وما العائد ؟ فقال الفراء : معنى، فقال الجرمي : أظهره، قال : لا يظهر، فقال الجرمي : مثّله فقال : لا يمثل، فقال له الجرمي : لقد وقعت فيما فررت منه (7).

ومفهوم العامل النحوي مفهوم مجازي اصطلاحي، وننقل هنا ما جاء في حدّة وتعريفه في أحد المعاجم العربية الحديثة، وهو المعجم الوسيط الصادر عنة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فقد ورد : " العامل في النحو يقتضي أثرا إعرابيا في الكلم، ومنه ما هو معنوي كالابتداء (8)

وقد نضجت فكرة العامل، واكتسبت سمة نظرية المحددة، بعد أن كانت تعتمد على قرائن لفظية وظواهر تركيبية، مع سيبوية، ويدل على ذلك ما يتردد في

الكتاب كثيرا من التعبير بالعامل الفرع (9)، والعامل المختص (10)، والتعليق والإلغاء (11)، والعامل المحذوف (12).

ثالثا – نضج التعليل :

البحث في العلة في اللغة لون من ألوان التفكير العقلي،"وقد صاحبت العلة اللغة منذ الوهلة الأولى، حين شرع الإنسان يضع المسميات للأشياء ليفرق بينها، ثم أخذت تتعقد شيئا فشيئا تبعا لتطور اللغة " (13).

وقد حاول النحويون القدامى استنباط هذه العلل، لأن العرب لم ينقل عنها أنها كانت تعلل لكلامها، بل كانت العلل راسخة في أذهانهم، وكان الخليل بن أحمد من أوائل النحويين الذين اهتموا بالتعليل، إلا أنّ النحويين لم يتفقوا على التعليل للمسائل النحوية، و قد أجاد الخليل في التعليل لاختلاف النحويين في ذلك بقوله : (فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم داخل دارا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار علي شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا، و لسبب كذا و كذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، و جائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سنح لغيري علة لما علّلته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها " . (14)

وكتاب سيبويه حافل بالعلل النحوية نذكر منها هذين النموذجين :

1- ذهب سيبويه (15) إلى أن نون التوكيد الثقيلة إذا اتصلت بفعل الاثنين أو بفعل الجمع، فإن نون الرفع تحذف استثقالا لاجتماع ثلاث نونات .

وقد أنكر المبرد اعتلال سيبويه لحذف النون بالاستثقال، فقال (وهذا اعتلال فاسد، لأن الجمع بين نونين في تضربونني، وثلاث نونات في قولهم : إنّني غير مستنكر، ولكنّ القول في هذا: إنّهم بنوا الفعل المذكر مع النون على الفتح فقالوا :

هل تخشين زيدا للواحد ؟ وفي الواحد اضربنّ زيدا، وسقوط النون من الجميع والمؤنث نظير الفتحة في الواحد كما كان ذلك في نصبها، فهذا القياس، وهو قول أبي عثمان، يعنى أن الثقيلة لما أزالت علامة الر فع في الواحد وبنته على الفتح في قولنا : اضربنّ زيد، فإنها أزالت علامة الرفع في فعل الاثنين والجماعة، لأنّ النون فيهما علامة رفع تزول في النصب والجزم في قولنا : لن يضربا، ولن يضربوا، و لم يفعلا، و لم يفعلوا، وعلى هذا يكون حذف النون ليس للاستثقال بل حملا على حذف علامة الرفع في المفرد [16].

وقد ردّ عليه ابن ولاّد بأنّ حذف النون للاستثقال صحيح، وهو أمر يحسّ به المتكلم، واستشهد على ثقله بقول الخليل : إنّ (اللسان إذا انتقال من حرف إلى غيره فهو سهل كسهولة الرجل إذا انتقل من موضع إلى سواه، فإذا نطق اللسان بحرف ثم رجع إليه كان كمشي المقيد ، وذكر ابن ولاّد أنّ المبرد يتفق مع سيبويه على أنّ اجتماع ثلاث نونات مستثقل، وذلك إذا اتصلت الثقيلة بفعل جماعة النساء، ولهذا فصلوا بينها بالألف فقالوا : اضربْنانّ [17] .

أما ما احتج به المبرد من قولهم : تضربونني، و إنّني، فهو لا يعني أن العرب لا تقدر على التكلم به، بل إنهم يتحملونه في مواضع، إلاّ أنهم قد يحذفون النون للاستثقال فيقولون : إنّي، وذكر سيبويه أنّ بعض القرّاء قرأ : ﴿ أتُحاجّوني ﴾ [18]، وقرأ بعضهم ﴿ فبم تَبَشّرونِ ﴾ [19] .

وحذف النون في هاتين القراءتين، وفي قولهم : إنّي، لا يعني أن ابن ولاّد يردّ ما ذهب إليه المبرد، بل يرى أنه علة ثانية، وقد تكون للمسألة الواحدة علتان، إلاّ أنه يؤيد سيبويه لأن علة الاستثقال أقوى، وهي الأولى، لأنها يحس بها أيّ متكلم

2 – تحدث سيبويه [20] عن كسر همزة (ان) وفتحها، وذكر أمثلة لذلك، من ذلك قولك : قد عرفت أمورك حتى انّك أحمق، فإنما جاز فتح (ان) لأنها يصح أن تؤول بمصدر، والتقدير : قد عرفت أمورك حتى انطلاقك، أما إذا قلت :

انطلق القوم حتى إنّ زيدا لمنطلق، فلا يجوز فتح (ان) فيها، لأن المفتوحة تؤول بالمصدر، فلا يجوز أن تقول : انطلق القوم حتى الانطلاقَ، فحتى في هذا المثال معلّقة لا تعمل شيئا في إنّ، كما لا تعمل في قولك : حتى زيدُ ذاهبٌ .

ثم قال سيبويه : (وسألته، هل يجوز : كما أنّك هاهنا على حدّ قوله : كما أنت ها هنا ؟ فقال : لا، لأن إنّ لا يبتدأ بها في كل موضع، ألا ترى أنك لا تقول : يوم الجمعة إنّك ذاهب، ولا كيف إنّك صانع، فكما بتلك المنزلة " [21]، يعني هل يجوز كسر همزة (أن) في قولك : كما أنك ها هنا، فتكون مثل قولك : كما أنت ها هنا ؟

رابعا – نضج المصطلحات :

لا يكمن أن تكون المصطلحات النحوية قد وضعت دفعة واحدة، لأن في ذلك مخالفة لطبيعة الأشياء ونموها وتدرجها . فقد مرت المصطلحات النحوية بالمراحل التي مرّ بها النحو كله . فقد بدأت ساذجة في أو الأمر إلى أن وقفت على قدميها، وأخذت أسماء ثابتة . [22]

ويعد سيبويه المقنّن الأول للمصطلحات البصرية، حيث ترددت كثيرا في كتابه، ثم اقتفى أثره الخالفون من البصريين . ومن هذه المصطلحات على سبيل المثال :

عطف البيان [23]، والتوكيد [24]، والزائد والحشو واللغو [25]، وباب الشركة (باب العطف) [26]، و الرفع والنصب والجر والجزم [27]، والضم والفتح والكسر والوقف [28]، والتعجب [29]، والتنازع [30]، والبدل [31]، والمفعول له [32].

ومعلوم أن نحويي الكوفة حاولوا – جهد استطاعتهم – أن يبتكروا مصطلحات خاصة بهم وأن لا يستعملوا المصطلحات البصرية، اجتهادا منهم ومخالفة للبصريين واستنكافا عن متاعبهم،و من المصطلحات التي أوردها الفراء في كتابه (معاني القرآن) نذكر :

الترجمة	= البدل
التفسير	= التمييز
الرّد	= العطف بالحرف
الصلة	= الزائد
الفعل الدائم	= اسم الفاعل
الكناية والمكني	= الضمير
ما لم يسم فاعله	= نائب الفعل
المجهول	= ضمير الشأن أو القصة

وهكذا ننتهي إلى القول بأن مظاهر الإبداع في النحو العربي اتسمت بالاستيعاب، كما تأثرت بالدراسات الفقهية والكلامية، وأخذت تركّز على تفسير الظواهر الإعرابية و تطبيق القواعد والأقيسة والتعليل على النصوص اللغوية . وكانت هذه المظاهر الإبداعية طريقا في بناء صرح الدراسة النحوية سواء في عرض المادة النحوية، أو في التعريف بالقواعد والأصول أو في الجمع والتأليف .

الهوامش

1 – د . منى إلياس : القياس في النحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1985، ص 9 .

2 – انظر : معجم الأدباء 13 / 191، وإنباه الرواة 2 / 267 .

3 – نزهة الألباء 10، طبقات الشعراء لابن سلام 14، طبقات الزبيدي 25، أخبار النحويين البصريين للسيرافي 20 .

4 – طبقات الشعراء لابن سلام 14 .

5 – سيبويه : الكتاب، 1 / 303 .

6 – د . أحمد شامية : دراسة تمهيدية منهجية متخصصة في مستويات اللغة، دار البلاغ للنشر والتوزيع الجزائر، ط 1، 2002، ص 99 .

7 – ابن الأنباري . نزهة الألباء في طبقات الأدباء، المكتبة التجارية الكبرى، 1995، ص 45 . وينظر أيضا : أحمد سليمان ياقوت . ظاهرة الإعراب وتطبيقها في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1983، ص 68، 69 .

8 – مجمع اللغة العربية . المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، ط / 2، القاهرة، دون تاريخ، 2/ 628 .

9 – الكتاب 2 / 130 .

10- المصدر نفسه 3 / 116 .

11 – المصدر نفسه 3 / 147 – 148 .

12 – المصدر نفسه 1 / 195 .

13 – د . زهير عبد المحسن سلطان : المؤاخذات النحوية حتى نهاية المئة الرابع الهجرية، منشورات جامعة قان يونس بنغازي، ط 1، 1994، ص 159 .

14 – الزجاجي : الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، مصر 1995 ص 66 .

15 – الكتاب 2 / 154 .

16 – المبرد : المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، 3 / 20 – 22 .

17 – المصدر نفسه 3 / 23 .

18 – الأنعام : 80 . وقد قرأ نافع و ابن عامر بتخفيف النون، و قرأ الباقون بتشديدها، التيسير 104 .

19 – الحجر : 54 . وقرأ نافع بكسر النون مخففة، وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة، التيسير 136 .

20 – الكتاب 1 / 471 – 472 .

21 – ينظر الكتاب 1 / 472 .

22 – د . عبد الله بن حمد الخثران : مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص 102 .

23 – الكتاب 2 / 184 .

24 – المصدر نفسه 2 / 206 .

25 – المصدر نفسه 2 / 105، 106، 107 .

26 – المصدر نفسه 2 / 377، 383 .

27 – المصدر نفسه 1 / 13 .

28 – المصدر نفسه 1 / 15 .

29 – المصدر نفسه 4 / 72 .

30- المصدر نفسه 1 / 37 .

31 – المصدر نفسه 1 / 150 .

32 – المصدر نفسه 1 / 367 .